النَّقد الفلسفيُّ والتّاريخيُّ لنظريّةِ (هيوم) حول المُعجِزات[1]

المؤلف: **قاسم خانجاني**[2]

المترجم: **محمد فراس الحلباوي**[3]

ملخّص

انبرَى بعضُ العلماء، ومن بينهم (ديفيد هيوم - David Hume)، للقول بعدَم إمكان إسناد أخبار المُعجزات وتَوثيقها. وبرأي (هيوم) لا تُوجَدُ مُعجزةٌ حَريّةٌ بتَصديق أشخاص أكفاء، فالإنسانُ بطَبيعته يَميلُ بشدّة وتَميُّز للأمور العَجيبة والغَريبة، وغالبًا ما تَنتشرُ الأخبارُ غَيرُ الطَّبيعيّة والإعجازيّةُ كثيرًا بين الشُّعوب البدائيّة والوَحشيّة، ونَظرًا للتَّعارُض المَوجود بينَ الأديان المُختلفة فقد ادَّعى كلٌّ منها المُعجزات، لإثبات أحقيّته ولتَضعيف الآخَر وإبطاله، لذلك، سيتَّضحُ في هذا المقال، وبالاستناد إلى المَنهج الوَصفيِّ – المكتبيِّ، أنَّ رأيَ (هيوم) لا يُمكنُ القَبولُ به. ومن أهمِّ الأدلّة على رفض نظريّة (هيوم) المُذكِّراتُ والمُحفوظاتُ السّابقةُ، وشهادةُ الشُّهود، والتَّقاريرُ والمَنقولاتُ التّاريخيّةُ، والاكتشافاتُ الأركيولوجية مثل النُّقوش الحسِّية، وبعضُ القَوانين العِلميّة، والأهمُّ من ذلك تواتُرُ أخبار المُعجزات، والإسنادُ إليها والقَبولُ بها.

الكلمات المفتاحية:

أخبار المُعجزات، الأخبار التاريخية، التحدِّي، التَّجريبيّة، هيوم.

---

١ - مقالة منشورة في: جاويدان خرد [العقل الخالد]، العدد ٤٢، خريف وشتاء ٢٠٢٢، ص.ص. ٢٥-٤٦.

٢ - المؤلف: أستاذ مساعد في قسم التاريخ في مركز أبحاث الحوزة والجامعة، إيران، قم.

٣ - دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، محاضر في جامعة دمشق، ترجمان محلف.

المقدِّمة

كانَت المُعجزةُ إحدى الأدواتِ التي استخدمَها الأنبياءُ والأئمّةُ عليهم السلام، دونَ شكٍّ، لإثباتِ ادِّعاءاتِهم أو أحقيّتِهم وصِدقِ كلامِهم، ولإثباتِ مَرجعيّتِهم العلميّة أيضًا. وبغضِّ النَّظرِ عن الأنواعِ المُختلفةِ للمُعجزاتِ، وبعيدًا عن التَّركيزِ على بعضِ الاختلافاتِ التي يُمكنُها أن تَنضوي ضمنَ الأدلّةِ والمُعجزاتِ، وأيضًا بدونِ الوُلوجِ في المباحثِ اللُّغويةِ، والتطوُّرِ في استخدامِ هذه التَّعابيرِ، فإنَّ ما يُبحَثُ في هذا المقالِ ويُدقَّقُ فيه هو أخبارُ المُعجزاتِ من حيثُ صحّةُ إسنادِها أو عدمِه، وليس من جهةِ إثباتِها أو رَفضِها، أو غربلتِها وتصفيتِها.

لذلك، فإنَّ هذا المقالَ يَسعى لإثباتِ هذا الموضوعِ باعتبارِ أنَّ إسنادَ أخبارِ المُعجزاتِ هو أمرٌ عقلانيٌّ وفِطريٌّ ومُبرَّرٌ كما سيأتي في الأدلة. لذلك فإنَّ بثَّ الشكِّ والتَّردُّدِ في الإسنادِ إلى أخبارِ المُعجزاتِ، وتحليلَها برُؤيةٍ ماديّةٍ وتَجريبيّةٍ مُعاصرةٍ بَحتة، ووضعَ هذه الأخبارِ على محكِّ التَّجربةِ، ورفضَ المُعجزاتِ نتيجةَ لذلك، هو أمرٌ غيرُ عقلانيٍّ بتاتًا، وفي بعضِ الأحوالِ هو تَفنيدٌ لأكثرِ الأمورِ الحياتيّةِ بداهةً، وغضٌّ للطَّرفِ عن أكثرِ علائمِ الحياةِ تجذُّرًا حتى فيما يتعلَّقُ بهويّةِ المُشكِّكينَ أنفسِهم، التي سوف يُشار إليها لاحقًا.

وبالطَّبعِ فمِن المُمكنِ أن يُتصوَّرَ أنَّ هذه المُعارضاتِ والمُخالفاتِ قد عُرضت من قِبَل فلاسفةِ الغربِ وعلمائِها، لكنْ مع دراسةِ المصادرِ القديمةِ ونظريّاتِ فلاسفةِ الإسلامِ وعلمائه في الماضي يُمكنُ إدراكُ أنَّ معارضةَ هذه الأخبارِ قد حدثَ منذُ ظهورِ هذه المُعجزاتِ، يَعني منذُ زمنِ الأنبياءِ عليهم السلام، وقد استمرَّ في المَراحلِ اللاّحقةِ، حتى يَومِنا هذا. وفي المراحلِ المُتأخِّرةِ انبرَى بعضٌ من

علماءِ الغَربِ، ومن بينهم (ديفيد هيوم - David Hume)[1]، للنَّيْلِ من أخبار المُعجِزاتِ، ولإظهار المُعجِزاتِ على أنَّها أمرٌ غيرُ قابلٍ للإسنادِ كذلك.

ذُكرت بعضُ الأمورِ حول هذا الموضوعِ ورَفضِه في بعض المؤلَّفاتِ، وتطرَّقَت بعضُ المَقالاتِ أيضًا لجزءٍ من هذا البحثِ. ولعلَّ البحثَ الأهمَّ، الذي عُرض في هذا الشّأن، هو قسمٌ من كتاب «فلسفةِ ديفيد هيوم الدِّينية» لمُؤلِّفه (محمد فتح عليّ خاني) الذي طبعَه «مركزُ أبحاث الحَوزة والدِّين» في قم المقدَّسة في العام ٢٠١١م. وقد طُبع أيضًا مقالٌ بعنوان «قدرة الإنسان الكامل على الإعجاز وتَفنيد انتقادات (الفخر الرّازي) و(هيوم) حول قيمة ذلك» لمُؤلِّفَيها السيِّد (حسين موسوي راد) والسيد (جابر موسوي راد) في «مجلة البحوث الإنسانية الدِّينية» العدد (٤٣) للعام ٢٠٢٠م؛ إذ تطرَّقَت لقسمٍ من هذا البحثِ ولنَقدِ (هيوم). "قراءة نقدية جديدة لتَعريف (هيوم) للمُعجزة، ورؤية جديدة لقوانين الطَّبيعة" هو عنوان مقالةٍ أُخرى ألَّفَها (حسين نصر الله) وقدَّمَها في «المؤتمر الدَّولي لفلسفة الدِّين المعاصر» في العام ٢٠١٣م، وقد تطرَّقَ فيها لقسمٍ من أفكار (هيوم) لكنَّه لم يَنقُدْها.

في المقال الفعليِّ، ولنقضِ آراءِ (هيوم)، تُساقُ أدلّةٌ كالذِّكرياتِ والمَحفوظاتِ القَديمةِ وشهادةِ الشُّهودِ العيانِ والتَّقارير، ونقلِ الأقوالِ التّاريخيّةِ والاكتشافاتِ الأثريّةِ الحسِّيةِ وبعضِ القوانينِ العلميّةِ، ولعلَّ الدَّليلَ الأهمَّ لإثباتِ أخبارِ المُعجزةِ هو تواتُرُ أخبارِ المُعجِزاتِ، وإسنادُها إلى هذه الأخبارِ، والقَبولُ بها، والتي سيتطرَّقُ المقالُ إليها بالتَّفصيل.

أولًا: رُؤية (هيوم)

أراد (هيوم) في «مقالٍ حولَ المعجزاتِ" الذي جاء في كتابِ «تحقيقٌ حولَ الفَهمِ البَشري»[2]

---

١ - ديفيد هيوم: فيلسوف أسكتلندي، ورائد المدرسة التجريبية، عاش في القرن الثامن عشر (١٧١١-١٧٧٦). لم يعترف بأي نوع معرفةٍ غير-تجريبية، وعدَّ الإدراكات المقبولة هي التي يُمكن إثباتُها بالإدراك الحسي أو الاستدلال العلّيّ، لذلك، خالف الكثيرَ من المعارف الدِّينية غير-التَّجريبية. (للاطلاع على حياته ومؤلفاته، راجع: فردريك كابلستون: تاريخ فلسفه [تاريخ الفلسفة]، ج٥، ص.ص. ٢٧٦-٤٠٧.: الفلاسفة الإنجليز من هوبز وحتى هيوم. وأيضًا راجع: ويل ديورانت: «الدِّين والفلسفة"، تاريخ تمدن، عصر ولتر [تاريخ الحضارة، عصر فولتير]، ص.ص. ١٥٩-١٨١).

2 - An Enquiry Concerning Human Understanding.

أن يعدّ أخبار المعجزات أمرًا غير عقليّ! وذلك باستخدامه لأبحاث في باب حساب الاحتمالات، وأنْ يُثبتَ عدمَ جَدوى اللُّجوءِ للمُعجزات في الدِّفاع عن المَسيحيّة. ولتَحقيق هذا الهدف فإنَّه لا يَبحَثُ في أيِّ خبرٍ خاصٍّ حولَ وقوعِ المُعجزاتِ، بل يَدَّعي إمكانيةَ تقديمِ استدلالٍ عامٍّ وكُلِّيٍّ يُغنينا عن الدِّراساتِ الخاصّةِ بكلِّ حالةٍ.

يتصوَّرُ (هيوم) أنَّ لديه بينَ يدَيه استدلالاً يُناوِئُ المُعجزات، ويجعلُ من أخبار المُعجزات أمرًا لا محلَّ له من الإعراب، حتى ولو نُقِلَ ذلك على لسان أكثرِ الشُّهودِ وثاقةً، ووَصَلَنا عن أكثرِ الرُّواة أمانةً، لكنَّ مُنتقديه يَرون عكسَ ذلك. فبعضٌ يُشكِّكُ في كون (هيوم) هو أوَّلُ من قدَّمَ هذا الدَّليلَ، ويَنقلونَ نماذجَ عن هذا الاستدلالِ على لسان أسلاف (هيوم)، وبعضُهم يُنكِرُ عليه إتقانَ هذا الاستدلالِ وتماسُكَه، ويَعدُّونَ مقالَه حولَ المُعجزاتِ أمرًا مُشوَّشًا وغيرَ مُتقَنٍ. وقد بدأ هذا النَّوعُ من الانتقادات لـ (هيوم) منذُ كتابته لهذا المقالِ، على يدِ معاصريه، ومنهم (جورج كمبيل George Campble-) الذي شكَّكَ في أصالة استدلالِ (هيوم)، وكونه من إبداعه، لكنَّه لم يتحدَّثْ عنه. وعَدَّ بتَعبيرٍ تهكُّميٍّ أبحاثَ (هيوم)، في رفض أخبارِ المُعجزاتِ، فاقدةً للقيمةِ، ومنهجَ بحثِه ليس إلا أسلوبًا لإثارةِ تعجُّبِ القُرّاءِ وجذبِ ثِقتِهم[1].

١ - أدلّة (هيوم) على عدمِ وثوقيّةِ الشَّهادات

ذكرَ (هيوم) خمسةَ أدلّة[2] في القسمِ الثّاني من مقال "حول المُعجزات"، وهو الجزءُ العاشرُ من "بحث حولَ فهمِ الإنسان"، ليُظهرَ أنَّ الشَّهاداتِ التاريخيّةَ على وقوعِ المُعجزاتِ لا يمُكنها أن تُشكِّلَ دليلاً مَوثوقًا على وقوعِها. لذلك لا يُوجَدُ أيُّ مُعجزة مُثبَتة لتُتاحَ الإمكانيّةُ بمُوجبها لإثبات المبادئِ الدِّينيّةِ الخاصّةِ عقليًّا. وهذه الأدّلة هي على النَّحو الآتي:

---

١ - محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، ص٢٢١.

٢ - ذُكر بالطبع في نص كتاب (هيوم) وأيضًا في ترجمته أربعة أدلة، وليس من الواضح لمَ أدرج المترجم المحترم في هذا المقال خمسة أدلة! يبدو أنه قد قسّم الدليل الرابع إلى دليلَين فصارت خمسة أدلة، لمزيد من الاطلاع، راجع: ديفيد هيوم: حول المعجزات، ص.ص. ٤١٢-٤٢٠، بالإنجليزية:

David Hume: An Enquiry Concerning Human Understanding and other writings, pp 102107-.

١. لا يُوجَدُ أيُّ مُعجزةٍ صَدَّقَ وقوعَها أفرادٌ أكفاءٌ مُحقِّقينَ للشُّروط، كذلك لم تَحدُثْ أيُّ مُعجزةٍ في أيِّ بُقعةٍ مَشهورةٍ من العالَمِ علنًا، ليُصبِحَ الاعترافُ بها أمرًا لا بدَّ منه.

٢. يَميل الإنسانُ بطبيعته ميلاً قويًّا واستثنائيًّا إلى الأمور العَجيبة والغَريبة، ثمّةَ نماذجُ كثيرةٌ من المُعجزات والتَّنبُّؤات المُبرَكة والحوادث غير الطَّبيعيّة التي اكتُشفت بواسطة الشَّهادات المُتناقضة، أو تُكتَشف بوصفها أمرًا مُستحيلاً، وتُشير بقدر كاف إلى نزوعٍ قويٍّ لدى الإنسان للأمور الخارقة للعادة، ولا سيَّما لو امتزجَت الرُّوحُ الدِّينيّةُ مع هذه الرَّغبة والمَيل، وهنا يُشارفُ العقلُ على الانتهاء، لأنَّ المَيلَ للأمور المُحيِّرة، بالتَّضافُر معَ الالتزام الدِّينيِّ، يُؤدِّي إلى تخيُّلِ الإنسان المُتديِّن أمورًا وهميّةً على أنَّها حقيقيّةٌ جرّاءَ الشَّوق والشَّغف الدِّينيّ.

٣. غالبًا ما تُشاهَدُ الأخبارَ غيرَ الطَّبيعيّة والإعجازيةَ بوُفور في الشُّعوب الجاهلة والبدائيّة. هذه الحقيقةُ تُولِّدُ شكًّا واقعيًّا وقويًّا في مواجهتها، لأنَّه يُقوِّي هذا الاحتمالَ بأنَّ الأخبارَ المُرتبطةَ بالإعجاز هي نتاجُ مرحلة الجهل وعدم اطِّلاع البشر على الأساليب الصَّحيحة للبيان العلميِّ والفلسفيِّ، لأنَّ المَيلَ المُتعارَفَ لدى البشر في هذه البيئات يكونُ متَّجهًا نحوَ الأمور العَجيبة والغَريبة، والإنسانُ يَبحثُ عادةً عن عواملَ غير مَرئيّة وغير طَبيعيّة لفَهم الحوادث.

٤. لمّا كانَت الأديانُ في حالٍ منَ التَّعارُض، فقد ادَّعى كلٌّ منها مُعجزاتٍ لإثباتِ أحقِّيته، وتَضعيف الأخرى وإبطالها.

٥. تُستخدم قصصٌ إعجازيّةٌ في الحقيقة لكلِّ دينٍ جديد، وذلك لتأييده، وهو بحدِّ ذاته بُرهانٌ آخَرُ على التَّشكيك، فلَدى مجموعة من النّاس رغبةٌ عارمةٌ للاعتقاد ببَعض المَواضيع الدِّينيّة، وقد دلَّتِ التَّجربةُ على أنَّ عددًا كبيرًا من النّاس تَنخدعُ بهذا النَّوع من الادِّعاءات[1].

1 - Hume, David: An Enquiry Concerning Human Understanding and other writings, p 102 -107.

ثانيًا: الإجابة عن إشكالات (هيوم)

بعدَ عرضِ أبحاثِ (هيوم)، عُرِضَت أجوبةٌ مُتعدِّدةٌ من قِبَل علماءَ في رفضِ آراءِ (هيوم) في المرحلةِ الزَّمنيّةِ ذاتِها والمُعاصِرةِ وحتى اليوم، يُشار إلى بعضٍ منها هنا:

١. (هنري ثيسن- Henry theson)، عالِمٌ في العَقيدةِ المَسيحيّةِ، وهو على الرغمِ من كونه بصَددِ الدِّفاعِ عن الدَّليلِ المنطقيِّ على إثبات وجودِ الله، لكنَ الموضوعَ الذي طرحَه يُمكن أن يُشكِّلَ إجابةً بيِّنةً على أفكار (هيوم) وزملائه في الفكر. يقول في هذا الشّأن: «يَعتمدُ هذا الادِّعاءُ القائلُ إنَّ: «الأفرادَ الذينَ لم يُشاهدُوا المُعجزةَ يُشكِّكونَ دائمًا بها»، على فرضيّةٍ غيرِ صحيحةٍ، وهي أنَّ على الإنسان أن يُؤسِّسَ جميعَ اعتقاداته على أساس تجربته البشريّة، ثم يقول في معرض نقضِ هذا الادِّعاء: نحنُ على الرغم من أنَّنا لم نُشاهِدِ العَصرَ الجليديَّ الكبيرَ على وجهِ الأرضِ لكنَّنا نَقبلُه حسبَما قالَ به علماءُ الجيولوجيا»[١].

٢. يَرى العلامةَ (الطباطبائي)، واستنادًا إلى هذا الاستدلال، أنَّ القَبولَ بالأمور الخارقةِ للعادةِ صعبٌ، حتى بالنِّسبةِ لعُلماءِ الطَّبيعةِ، لأنَّهم يُوضِّحونَ الظَّواهرَ بعِلمِهم المُعاصِرِ، لكنَّ المُعجزةَ هي شيءٌ أبعَدُ مدًى من تَجاربِهم[٢].

٣. يرى العلامة (الطباطبائي) أنَّ استدلالَ أمثالِ (هيوم) لا أساسَ له من الصِّحة، لأنَّ بعضَهم برأيِه يَخلطُ بينَ المَنهجِ الفلسفيِّ والعلومِ التَّجريبيّةِ. فالعلمُ التَّحريبيُّ يَرتكزُ على التَّجربةِ والحسِّ، ويُريد بعضُ العلماءِ أن يُحلُّوا الأبحاثَ العَقليّةَ في المَخبرِ، وهذه النَّزعةُ الإفراطيّةُ ليسَت في محلِّها[٣].

٤. يُؤمِنُ (جون هيك- John Hick) أيضًا بالحوادثِ والتَّجاربِ الخاصّةِ في إثبات وجودِ اللهِ عن طريقِ البَراهينِ ذاتِ الصِّلةِ بأنَّ بعضَ الحوادثِ الخاصّةِ، كالمُعجزاتِ

---

١ - هنري ثيسن: الهيات مسيح [شريعة المسيح]، ص١١.

٢ - محمد حسين الطباطبائي: إعجاز القرآن، ص.ص. ٢٥-٣٠.

٣ - محمد حسين الطباطبائي: مبادئ الفلسفة والمدرسة الواقعية، ج١، ص.ص. ٤ -٥.

واستجابةِ الدُّعاءِ، هي نوعٌ شاهدَهُ كثيرٌ من الأفرادِ، ويُثبتُ وجودَ الله[1]. بالطَّبعِ لم يُجبْ عن (هيوم) في هذا البيانِ، لكنَّه لوَّحَ بالاعترافِ بصحّةِ هذا النَّوعِ من المُعجِزاتِ لإثبات وجودِ الله.

٥. يمُكنُ عدُّ (ريتشارد سورينبرن - Richard Swinburne) ممَّن تطرَّقَ للإجابة عن إشكالاتِ (هيوم)، وأنَّه نقدَ بالتَّفصيلِ «برهانَ (هيوم)» وزميله في الفكرِ (آنطوني فلو - Antony Flew)؛ فهو وخِلافًا لـ (هيوم) و(فلو) يَرى إمكانَ إثباتِ المُعجزاتِ التّاريخيّةِ بالاستمدادِ من الأدلّةِ والشَّواهد. لقد سَعى ليُظهِرَ أنَّه لتحقيقِ أمرٍ ما قد وقعَ في الماضي، ثمّةَ أربعةُ أنواعٍ من الأدلّةِ والشَّواهد:

أ. عن طريق الذاكرةِ والخاطرةِ.

ب. عن طريق شهادةِ الشُّهودِ العيانِ ونَقلِ الأقوالِ التاريخية.

ج. عن طريق الآثارِ الحسِّيةِ المُتبقِّيةِ من نوعِ البُحوثِ التي أُجرِيَت في علمِ الإجرامِ وانتشرَت.

د. عن طريق القوانينِ العلميّةِ وما يُعدُّ مُحالاً أو غيرَ مُحتمَلٍ استنادًا إلى القوانينِ العلميّةِ، ويمُكِنُ أن يكونَ معيارًا لنَقدِ الدَّليلِ وتَقويمِه من الأنواعِ الثَّلاثةِ الأولى.

-برأيه- ركَّزَ كلٌّ من (هيوم) و(فلو) على النَّوعِ الثّاني والرّابعِ فقط من أنواعِ الأدلّةِ الأربعةِ، وجعَلا النَّوعَ الرابعَ معيارًا لنقدِ النَّوعِ الثاني وإقصائه، لكنَّهما لم يتحدَّثا عن النَّوعَينِ الآخَرين، وبالطَّبعِ لم يكنْ مَقدورًا لـ (هيوم) أنْ يَطَّلعَ على النَّوعِ الثالثِ؛ لأنَّ هذا الفَرعَ، من التَّحقيقِ حولَ الحوادثِ الماضيةِ، لم يكنْ قد وُجد في ذلك الزَّمن[2].

يدَّعي (سوينبرن) بعد تَبيينِه لعدّةِ مبادئَ أنَّه أولاً، وخلافًا لـ (هيوم) و(فلو)، يمُكن البحثُ

١ - جون هيك: فلسفة الدين، ص٧٠.

٢ - محمد أمين أحمدي: تناقض نما يا غيب نمون، نگرشى نو به معجزه [نظرة حديثة للمعجزة]، ص.ص. ١٧٣-١٧٥.

في القَضايا التّاريخيّة أيضًا، مثل القضايا المَنهجيّة حسبَ المَنهجِ العلميِّ، ومن هذه الجهة فإنَّ النَّوعَ الرابعَ (يَعني القضايا المَنهجيّةَ، وتُعدُّ القوانينُ العلميّةُ من هذا القسم) يَرجع إلى القضايا التي تتحدَّثُ عن المُعجزات (القضايا التاريخية)، ثانيًا بالاستعانة بالمَبدأ الرابع من المبادئ الآنفة الذِّكر فإنَّ الباحثَ والمُحقِّقَ في التّاريخ يمُكنُ أن يَستدلَّ بالأدلّة الثلاثة الأولى على وقوع الحدث التّاريخيِّ، بسبب كثرة المُستَندات والأدلّة وانسجامها ورَجحانها على الدَّليلِ من النَّوعِ الرّابعِ (القضيّة المَنهجيّة)[1].

جاء في الإشكال الأوَّلِ لـ(هيوم) أنَّه: لا يُوجَدُ أيُّ مُعجزةٍ قد صدَّقَها أفرادٌ أكفاءٌ ومُحقِّقونَ للشُّروطِ.

يَبدو أنَّ رأيَ (هيوم) هو التَّواترُ في أخبار المُعجزات؛ إذ إنَّه لم يُشرْ إلى مفردة «التَّواتُر»، لكنَّه استخدَمَها بهذا المعنى. لذلك فإنَّ الإشكالَ الرَّئيسَ الذي يَرِدُ على رأي (هيوم) هو أنَّه ماذا يَقصد من الأفرادِ الأكفاء المُحقِّقينَ للشُّروطِ، أو ماذا يَقصد من التواتُر؟ ،بعبارة أُخرى، لم يُعيِّنْ بدقّة ما معيارُه ومَقصودُه من الخبرِ المُتواترِ، وفي أيِّ حالةٍ يمُكنُ عدُّ خبرٍ ما مُتواترًا، والجزمُ واليَقينُ به.

قالوا في تعريف التَّواتر: لو وصلَتْ أخبارُ جماعةٍ ما إلى حدٍّ يَنتفي فيه إجماعُهم على الكذبِ عادةً، ويُوجِبُ الاطمئنانَ، فإنَّهم يَقولونَ عن ذلك الخبرِ مُتواترًا[2].

واستنادًا إلى هذا التَّعريف، يَصل حدُّ التَّواترِ إلى المَرحلة التي يَصل فيها خبرٌ، من حيثُ الكمُّ والكيفُ، إلى حدٍّ يَحصل فيه يقينٌ للمُستمعينَ له، على الرغم من أنَّه من المُمكنِ ألّا يَحصل هذا اليَقينُ بالنِّسبة لمَن يَنظرونَ نظرةَ شكٍّ إلى العالَم، لكنْ للانصافَ ثمّةَ تواترٌ بالنِّسبة للكثيرِ من المُعجزات. فضلًا عن ذلك فإنَّ أصلَ إشكال (هيوم) لا يَصدق حولَ القرآن، لأنَّ إعجازَ القرآن لا يَستندُ إلى إخبار السّابقينَ، بل هو مُعجزةٌ خالدةٌ، ويَدعو الجميعَ للتحدِّي.

إنَّ الدَّليلَ الأهمَّ على إثبات المُعجزاتِ هو كفايةُ المُخبرينَ والمُقرِّرينَ للمُعجزاتِ أو حدوثُ

---

١ - محمد أمين أحمدي: تناقض نما يا غيب نمون، نگرشى نو به معجزه [نظرة حديثة للمعجزة]، ص.ص. ١٧٤-١٨٤.

٢ - عبد الله المامقاني: مقباس الهداية، ج١، ص٨٩-٩٠.

التواتُر. على الرغم مما يَبدو بأنَّ (هيوم) قد أغفلَ التَّواتُرَ عَمدًا؛ لأنَّ (هيوم) يُريد أن يقولَ استنادًا إلى النَّزعة التَّجريبيّة الفعليّة إنَّ أخبارَ المُعجزات أمرٌ غيرُ صَحيح، في حين أنَّنا لا نَتعاطى مع التَّجارب الفعليّة في بحث المُعجزات بتاتًا، لأنَّ المُعجزةَ تَعني وقائعَ حدثَتْ في زمن الأنبياء عليهم السلام. وقد لُوحظ في فلسفة المُعجزة أنَّها لا تَرتبط بالزَّمن الرّاهن، بسبب تَرافُق التَّحدِّي مع المُعجزة، لأنَّ النبيَّ يأتي بالمُعجزة لإثبات نُبوّته، والآنَ ليسَ ثمّةَ نبيٌّ يُريد أن يُعجزَ، ويُريدُنا أن نُؤمنَ بمُعجزته. إذنْ موضوعُ المُعجزة مُنتفٍ بالنِّسبة لزَماننا.

لكنَّ أخبارَ المُعجزة التي نبحثُ فيها يمُكن إثباتُها جيِّدًا من خلال التَّواتر، كما يُؤكِّدُ بعضٌ من العُلماء على ذلك. كنموذج يَقول (أبو حاتم الرّازي) بعدَ أن يُشيرَ إلى بعض الأدلّة ومُعجزات رسول الله ﷺ: «يتَّفقُ جميعُ النّاس ويُجمعونَ على هذه المُعجزات، وقد رآها المؤمنونَ والكافرونَ، وسمعَتْها الأجيالُ اللاّحقةُ من الأسلاف»[1]. ويُضيف: «إنَّ قولَ المُلحد (زكريا الرازي)، الذي ظنَّ أنَّ مُعجزات رسول الله ﷺ قد نقلَها شخصان أو ثلاثةٌ، يمُكن أن يَكونوا قد تآمَروا على ذلك، وهذا ليسَ بحُجّة، لأنَّ المُعجزات قد شاهدَها الكثيرُ من المسلمينَ والكفّار، ومن غير المُمكن أن يَكونوا قد تآمروا على ذلك. [...] وبعدَ أن يَنقل عددًا من معجزات رسول الله ﷺ يَقول: هذه معجزاتُ النبيِّ الأكرم مَوجودة في كتب الأنبياء التي يَقرؤُها أهلُ الكتاب ولا يُنكرونَ ما عبرَّنا عنه، لأنَّها كُتبت في كتبهم، وهذا ليس شيئًا يمُكنُ التآمُرُ عليه، وهذه ليسَت من الأمور التي قد نَقلها اثنان أو ثلاثةُ أشخاص؛ لأنَّها إخبارٌ من الأنبياء، وقد حدثَتْ في مراحلَ مختلفة وأزمنة بَعيدة قبلَ رسول الله ﷺ»[2].

كما ذُكر في العهد القديم (التَّوراة) أيضًا حولَ بعثة رسول الله ﷺ، وتلقِّيه للوَحي وتَبيينه للنّاس: «ومِن بينِ إخوتهم بعثنا نبيًّا مِثلَكَ لهم، سأضعُ كلامي في فمه وسيَقولُ كلَّ ما آمُرُه به»[3].

فضلاً عن (أبي حاتم الرازي) ركَّزَ (هاروني الحسني الزَّيدي) أيضًا بعبارات مُشابهة على تواتُر هذه الأخبار، ورأى أنَّ أخبارَ المُعجزات هي من الأخبار المشهورة والمُستفيضة التي لا يَشكُّ

١ - أبو حاتم الرازي: أعلام النبوة، ص١٩١.
٢ - أبو حاتم الرازي: أعلام النبوة، ص ١٩٨.
٣ - العهد القديم (التوراة)، ٦٥٤.

فيها أهلُ النَّقلِ وأصحابُ السِّيرةِ والتّاريخِ، والكثيرُ من النّاسِ على علمٍ بها بسببِ شُهرتِها[1].

أشارَ من غير العلماءِ المُسلمينَ كبعضٍ من فلاسفة الغَرب إلى التَّواتر وقالوا: «على الرَّغم من الاختلافات الكثيرة الموجودة حولَ ماهيّة الحادثة، التي يُمكن أن تُعدَّ مُعجزةً، وأيُّها غيرُ مُعجزة، فإنَّ الجميعَ يتَّفقُ على أنَّه قد حدثَت مُعجزاتٌ كثيرةٌ على مرِّ التاريخ، لذلك كيفَ لكم أن تُبيِّنوا علّةَ مُعجزة بطَريق مُغاير غير أن نَقولَ إنَّ اللهَ تدخَّلَ في المسار الطَّبيعيِّ للحوادث، وأدَّى إلى حدوث هذا الأمرِ الإعجازيِّ؟ وبناءً عليه فإنَّ وقوعَ المُعجزات يُثبتُ وجودَ الله»[2].

فضلاً عن ذلك، لقد قال هيوم في مخالفته لأخبار المُعجزات في القسم الثّاني من مقاله، مُستدلاًّ بدليل آخَرَ على انخفاض مصداقيّة الأمور العَجيبة: «لَم تقمْ شهادةٌ لصالح أيٍّ من هذه الأمور، ليُخالفَها عددٌ كبيرٌ من الشُّهود. ولإدراك أفضلَ لهذه الأمور من المُستحسَن أن نَقبلَ في باب الأديان أنَّ الاختلافَ هو بمَعنى التَّعارُض، وليس مُمكنًا إن تكونَ أديانُ الرُّوم القَديم وبيزنطةَ وسيام والصِّين قد أثبتَتْ استنادًا إلى أساسٍ مُحكَم. لذلك فإنَّ أيَّ مُعجزة يُدَّعى أنَّها حصلَت في واحد من هذه الأديان (وهذه الأديانُ مليئةٌ بالمُعجزات) فكما أنَّ هدفَها المباشرَ هو إثباتُ نظام دينيٍّ خاصٍّ تُنسب هذه المُعجزةُ إليه، يُمكنُها أيضًا أن تُحاربَ أنظمةً دينيّةً أُخرى بشكل غير مباشر. وبما إنَّ النِّظامَ الدِّينيَّ الآخر يُصابُ بالخَلل فإنَّ المُعجزات التي تُعدُّ أساسًا لذلك الدِّين ستُصابُ بالخَلل أيضًا. لذلك فإنَّ الحوادثَ العَجيبةَ في الأديان المُختلفة يَنبغي أن تكونَ وقائعَ مُتعارضةً، كما يَنبغي أن تكونَ الأدلّةُ على هذه الحوادث العَجيبة سواء أكانت ضعيفةً أم قويّةً يُخالفُ بعضُها الآخَرَ»[3].

يَرى بعضُ مَن يُجيبُ عن هذا الإشكال أنَّ الأمرَ ليسَ معناهُ كلَّما أُثبتَت مُعجزةٌ لدين استلزمَ ذلك بطلانًا لجميع الأديان الأُخرى؛ لأنَّ بعضَ الأديان أوَّلاً لدَيها رؤيةٌ تعدُّدية. الأديانُ الشَّرقيّةُ (الهنديّة والصِّينيّة) هي كذلك. وثانيًا الأديانُ التَّوحيديّةُ الإبراهيميّةُ، معَ اعتقادها بأحقِّيتها الحَصريّة، فإنَّها في الوقت نفسه تَعتقدُ بوجود المُعجزات في الأديان الحَقّة قَبلها. مثلاً المسيحيّةُ

---

١ - أحمد بن حسين هاروني حسني زيدي: إثبات نبوة النبي ﷺ، ج١، ص ٢٥٨.

٢ - جون هاسبرز: فلسفه دين (نقدى بر براهين اثبات وجود خدا به روش تحليل فلسفي) [فلسفة الدين (نقد على براهين إثبات وجود الله بالمنهج التحليلي الفلسفي)]، ص٨٣.

٣ - محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، ص٢٧٣.

لا تَعتقد بوقوع المُعجزةِ في اليَهوديّة فحسب، بل إنَّ أحدَ أُسس إثبات أحقِّية المَسيحيّة هي الادِّعاءُ بتحقُّق النُّبواءات الموجودة في التَّوراة والرِّوايات اليَهودية. الإسلامُ أيضًا له رؤيةٌ مشابهةٌ بالنِّسبة للمَسيحيّة واليَهوديّة. القرآنُ لا يَنقل مُعجزاتِ الأنبياء الإلهيِّينَ العِظام ويُؤيِّدُها فحسب، بل يُنزِّهُ تلكَ المُعجزاتِ عن الإضافات غيرِ المَعقولةِ التي نُسِجَت حولَها، ويُعنى عنايةً خاصّةً بتَبيينِ تلكَ المُعجزاتِ مُنزَّهةً عن الخُرافة[1].

فضلاً عن ذلك، وفي الإجابة عن إشكالِ (هيوم)، يَنبغي القولُ: ادِّعاؤُكم بأنَّه "لم تقمْ أيّةُ شهادةٍ لصالحِ أيٍّ من الأمور العَجيبةِ، ليُخالِفَها عددٌ كبيرٌ من الشُّهود":

أوَّلًا: من أينَ حصلتُم على هذه المُخالفات؟ أينَ هي هذه المُخالَفاتُ التي لم يطَّلعْ عليها أحدٌ غيرُكم؟ أبحثْتُم في جميع الأمورِ العَجيبةِ ووَصلتُم إلى هذه النَّتائج؟

ثانيًا: بأيِّ دليلٍ يَنبغي أن نَقبلَ هذه النَّتيجةَ منكُم؟ أليسَ بظَنِّكُم وكما تَقولون إنَّ الشَّهادةَ وإخبارَ الأفرادِ حتى ولو كان عددُهم كثيراً جدًّا لا اعتبارَ له، إذنْ كيفَ يكونُ لكم ولخَبرِكُم الوحيدُ اعتبارًا؟ أليسَ ادِّعاؤُكم هذا هو الدَّليل الأفضل على ضعف استدلالِكم؟ وأنتُم تتوقَّعونَ أن تكونَ شهادةُ الكثيرِ من الأفراد بسببِ احتمالِ وجودِ خطأٍ فيها غيرُ قابلةٍ للقَبولِ، لكنَّ شهادتكم واستنتاجَكم مَقبولةٌ لوَحدِها.

بغضِّ النَّظرِ عن ذلك، فأنتُم تقولون: لفَهمِ أكبرَ لهذه المَواضيعِ من الأفضل القَولُ إنَّ الاختلافَ هو بمَعنى التَّعارضِ في باب الأديان، واستنادًا إلى أيِّ قاموسٍ لُغويٍّ فإنَّ الاختلافَ يَعني التَّعارُضَ؟ هذا يَعني أنَّ معجزةَ النبيِّ موسى عليه السَّلام أحيانًا، كما يدَّعي اليَهودُ، ومُعجزاتِ النبيِّ عيسى عليه السَّلام، كما يدَّعي المَسيحيُّونَ، ومُعجزاتِ رسولِ الله ﷺ، كما يدَّعي المسلمونَ، متعارضةٌ لأنَّها مُختلفةٌ، في حين إنَّ الأمرَ ليس كذلك. ما الإلزامُ في أن نُفسِّرَ الاختلافَ بالتَّعارُضِ؟ لو قُمنا بذلك سيَظهر الإشكالُ من هذه النّاحية، لأنَّه ثمّةَ أخبارٌ مُختلفةٌ عن المُعجزاتِ، وأخبارٌ أُخرى في الأديان المُتنوِّعة، ليسَ فيها تعارُضٌ بأيِّ وَجهٍ، بل على العكس، وكما أُشير في بعض الحالاتِ هي بمَعنى التأييدِ للمُعجزة الأُخرى.

---

١ - محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، ص٢٧٤.

لذلك، فلو أردْنا على أساس النَّزعة التَّجريبيّة، وتلك النَّزعة التَّجريبيّة الرّاهنة والحسِّية التي يَدَّعيها (هيوم)، أن نُقابلَها مع العلوم والظَّواهر الأُخرى فسنضطرُّ لأنْ نضعَ جميعَ القَضايا والأخبار الثّابتة في الحياة البشريّة جانبًا. لأنَّ الكثيرَ منها اليومَ غيرُ قابلة للتَّجريب، وبظَنِّ (هيوم) لا يُمكنُ الوثوقُ بأخبار الأسلاف أيضًا. كما يَقول (إيرمن): «... من الجميل أن يَستعينَ (هيوم) في تأييد آرائه بمثال يُساعدُ بمقدار كبير على إدراك عدم عَقلانيّة حصر الاستدلالات الاستقرائيّة، وإيلاء الأهمِّية للأخبار الواردة من الماضي. مثال الأمير الهندي مثال مشهورٌ استلهمَه هيوم من أسلافه. سنَستخدمُ المثالَ نفسَه في جهةٍ مُعاكسةٍ لغرضِ هيوم ليتَّضحَ ماذا يَستتبعُ الحصرَ في الاستدلالات الاستقرائيّة من مَخاطر».

يقول في المثال: لم يَخرجْ شخصٌ من أهالي الهند من بلده بَتاتًا، ولم يَرَ في عُمره رجلاً أبيضَ أو امرأةً بيضاءَ، وشاهدَ على الدَّوام ذوي السُّحنة السَّمراء، فهو يَظنُّ أنَّ الكينونةَ البيضاءَ للإنسان هي أمرٌ يُخالفُ الطَّبيعةَ البشريّةَ. وبما أنَّه فَهِمَ الطَّبيعةَ بهذا الشَّكل فإنَّه سيُكذِّبُ كلَّ مَن يتحدَّثُ خلافًا لرأيه. والآنَ مَن هو المُخطِئُ، ذلك الذي يَقبل الدَّليلَ باستناده إلى طبيعة الإنسان أم ذاكَ الذي لم يَقبلْ بذلكَ الدَّليل وهو يَقبلُ بأنَّ البيضَ مَوجودونَ؟[1] السَّببُ وراءَ الحُكم الخاطئ لذلك الهنديِّ ليسَ إلا لأنَّه يُفكِّرُ مثلَ (هيوم)، ولذلكَ فإنَّه يُعطي قيمةً كبيرةً لمُشاهداته السّابقة، فهو يَرى أمرًا ليسَ مُحالاً في نفسه، ويَظنُّه أمرًا مُستحيلاً، ونتيجةً لذلك، يُخالف جميعَ الأخبار التي تُذعِنُ بوُقوع ذلك الأمر.

ذكرَ (جون لوك- John Locke) قبلَ (هيوم) مثلاً مُشابهًا. فهو يَستخدمُ المثلَ بشكلٍ مُغاير لـ(هيوم). تطرَّقَ في الفصل الخامسَ عشرَ من الكتاب الرّابع "مقال حول الفاهمة البشريّة»[2] في مقام تَبيين مَراتب الإدراك البشريِّ إلى بحث الإدراكات المُحتملة وعَرض مَنشأين لإدراكات الإنسان المُحتملة. أحدُ المَنشأين هو الشَّهاداتُ وأخبارُ مَن يَروُونَ مُشاهداتهم للآخَرينَ. برأي (لوك) في حال كان عددُ الشُّهود والرُّواة ووثوقيّتُهم وصدقُهم وقدرةُ ضَبطهم ودَركهم كافيةً، وكان للخبرِ الذي يَنقلونَه انسجامٌ داخليٌّ، ولم تَنقضْ شهادةٌ مُعارضةٌ خبرَهم، و-في إخبار الآحاد- لو

١ - مقتبس من: محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، ص٢٣٠.

2 - An Essay Concerning Human Understanding.

كانَ ثمّةَ شاهدٌ أو راوٍ لا يَستدعي الكذبَ والدَّسيسةَ، فعَلينا أن نقبلَ الخبرَ ونَثِقَ به، وبالطَّبعِ نتَّبِعَ في نسبةِ وثوقيّتِه نسبةً ما يُوفِّرُه من شروطٍ آنفةٍ. يَقول (لوك) متابعًا:

لو أنَّني بنَفسي رأيتُ شخصًا يمَشي على الجليدِ سيكونُ قَبولي بهذا الحدثِ أعلَى من مستوى الاحتمال. فهنا لديَّ علمٌ. ولو أخبرني أحدُهم بأنَّه في الشِّتاء في إنجلترا ثمّةَ مَن يمَشي على الماء الذي تجمَّدَ إثرَ البرَدِ، فبما أنَّ خبرَه يَتوافقُ مع تجاربي السّابقة [لأنَّني كنتُ أعيشُ في إنجلترا]، وفي حين لم يَترافقْ خبرُه بالشَّكِّ والتَّردُّد فسأرغبُ بالقَبول بما يُخبِرُه. لكنْ لو أعلمُوا مَن يَعيشُ في المناطق الاستوائيّةِ بهذا الخَبرِ؛ بما أنَّه لم يَرَ هذا الحدثَ، ولم يَسمعْه، فسيكونُ وُثوقُه بهذا الخبرِ مُعتمدًا على عددِ الشُّهودِ والرُّواةِ واعتبارِهم، وألا يكونَ مُنبثقًا عن كذبٍ ما. بالطَّبعِ مَن كانَت سائرُ تجاربِه السّابقةِ خلافًا لهذا الحدثِ، فسيَكونُ من الصُّعوبةِ بمكانٍ تقبُّلُه لخَبرِ أكثرِ الأفرادِ ثقةً، وسيُصدِّقُ بصُعوبةٍ بالغةٍ فحوى الخبرِ.

مثلُ قصّةِ السَّفيرِ الهولنديِّ، الذي كان يُسلِّي ملكَ سيام بنَقلِه لحكاياتٍ عن هولندا. ومن بينَها أنَّه ذكرَ له جُملةً بأنَّ الماءَ في هولندا في الشِّتاءِ، وإثرَ البرُودةِ، يتجمَّدُ ويُصبحُ من الصَّعبِ على الإنسان أن يَمشيَ عليه، وأنَّ ذلك الجليدَ يتحمَّلُ وزنَ فيلٍ عليه. فقال الملكُ: إلى الآنَ كنتُ أُصدِّقُ كلَّ ما تَرويه لي من أعاجيبَ، لأنَّني كنتُ أجِدُكَ إنسانًا قَويمًا ومُنصِفًا، لكنَّني الآنَ واثقٌ من أنَّكَ تكذِبُ[1]!

برأي (لوك) إنَّ الأسلوبَ العَقلانيَّ في هذه الحالاتِ هو دراسةُ نسبةِ الوُثوقيّةِ وشروطِ أهمِّيةِ الخَبر، وليس رفضَه بسبب مخالفتِه لتَجاربِ المُستمعِ الماضية. في هذه القصّةِ يَبدو من كلام (لوك) أنَّه لا يُؤيِّدُ ما قامَ به ملكُ سيام. بل يُريد أن يُظهِرَ التأثيراتِ النَّفسيّةَ للمُشاهداتِ السّابقةِ على مُستمعِ الخبرِ[2].

كيفَ يَنبغي أن يكون موقفُ (هيوم) في مواجهةِ هذه الأمثلةِ التي تكونُ على هذه الشّاكلةِ؟

---

١ - محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، ص٢٣٠؛ أيضًا،

John Locke: An Essay Covcerning Human Understanding, A. s. Pringle- pattisson, pp. 387386-.

٢ - محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، ص٢٣١.

لو التفَتْنا إلى النَّزعة الطَّبيعيّة لـ(هيوم) فعَلينا أن نتوقَّعَ أنَّه يَعدُّ ردَّ فعلِ المَلكِ السّياميِّ مُتوافقًا مع طبيعته، ولذلك فإنَّ أداءَه في إنكار تجمُّد الماء هو سلوكٌ عقلانيٌّ. وللتَّوضيح نقولُ: إنَّ (هيوم) يَرى أنَّ الاستدلالاتِ العلِّيّةَ غيرُ قابلةٍ للتَّبريرِ، ويُؤمِنُ بأنَّ الأسَّ العَقلانيَّ للاستدلالاتِ العلِّيّةِ هو طبيعةُ الإنسان. يقول:

نحنُ جُبلنا بنحوٍ ما وجُهِّزْنا بنحوٍ ما من قِبَل الطَّبيعة لنُطوِّرَ أحكامَنا حولَ الأمورِ الواقعة عن طريقِ الاستدلالِ العلِّيّ. فلا أحدَ يَعملُ من خلال الانتقالِ من الانطباعِ أو تصوُّرِ الشَّيءِ إلى تصوُّرِ الشَّيءِ الآخَرِ بإرادته، فالطَّبيعةُ هي التي تُؤدِّي إلى هذا النَّوعِ من الانتقالاتِ أو التَّداعيات. إذنْ لو درسْنا سلوكَ أشخاصٍ كمَلكِ سيام، وأدركْنا أنَّه واستنادًا إلى الجبلّة والطَّبيعة الإنسانيّة سيتجنَّبُ قَبولَ خبرِ انجمادِ الماءِ البتّةَ، فعَلينا أن نُؤيِّدَ سلوكَه. لكنَّ (هيوم) لا يتَّخذُ موقفًا كهذا.

والآن التفتُوا إلى عبارة (هيوم): «امتنعَ الأميرُ الهنديُّ عن قبولِ الأخبار الأوَّليةِ المُتعلِّقة بالتَّجمُّد، وكان استدلالُه حقًّا، فقد كانَ من الطَّبيعيِّ جدًّا أن يَحتاجَ لاستدلالٍ شديدِ الإتقانِ ليُؤمِنَ بوقوعِ حوادثَ تَنشأُ عن حالةٍ في الطَّبيعة لا علمَ له بها مُسبقًا، وهي قليلةُ الشَّبهِ بحَوادثَ كان قد جرَّبَها بثَباتٍ واستمراريّةٍ. تلكَ الأخبارُ لم تكنْ مُتعارِضةً مع تجربتِه، لكنَّها لم تكنْ مُنطبِقةً عليها»[1].

في هذه الجُمل ثمّةَ نُقطتان حَريّتان بالانتباه؛ الأولى إنَّ (هيوم) عدَّ سلوكَ الأميرِ الهنديِّ طبيعيًّا، الثانية هي إنَّه يُريد القولَ إنَّ هذه الأخبارَ لا تتعارضُ مع تجاربه لكنَّها لا تتطابقُ معَها. ما المقصودُ من التَّعارُضِ والانطباق؟ كما يَبدو فإنَّ (هيوم) يُريد القَولَ إنَّ تجاربَه على الرَّغم من أنَّها لا تتطابقُ مع أخبار الجَليدِ ولكنْ ليسَ فيها ما هو غيرُ مُنسجم معَها. يَعني حتى ولو لم يرَ الجليدَ، لكنَّ ما رآه حتى الآنَ لا يَجعلُ من الجليدِ أمرًا مُستحيلاً أو غيرَ مُمكنٍ. المقصودُ هنا، تَبيينُ الاختلافِ بينَ المُعجزاتِ والحَوادثِ الخارقةِ للعادة، فعلى الرَّغم من عدمِ كونِها شيئًا عاديًّا، إلا أنَّه لا يُمكنُ عدُّها من المُعجزات. لقد ذكرَ (هيوم) في مقطعٍ وَضَعَه في الهامش وأضافَه إلى النصِّ الرَّئيسِ مواضيعَ تُبيِّنُ هذا الاختلافَ.

---

١ - مقتبس من محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، ص.ص. ٢٣١-٢٣٢.

من الجليِّ أنَّه لا يُوجد هنديٌّ لديه تَجربةٌ عن عدم تجمُّد الماء في الجوِّ البارد. هذا الأمرُ يَضع الطَّبيعةَ في وضعٍ غير مُدركٍ بالنِّسبة إليه بتاتًا، ومن المُستحيل أن يَتمكَّنَ من القول بالنَّحو السّابق ماذا سيَكونُ تأثيرُ الهواء البارد. فهذا الأمرُ يُولِّدُ تَجربةً حَديثةً نَتيجتُها غيرُ مُحدَّدة بتاتًا. تارةً من المُمكن أن نتنبَّأَ النَّتيجةَ عن طريق التَّمثيل، لكنْ في الحال نفسه هذا حدسٌ فقط، ويَنبغي الإقرارُ بشأن التجمُّد أنَّ الواقعَ يتحقَّقُ مُخالفًا لقواعد التَّمثيل والتَّشابُه، وبنحوٍ يكونُ غيرَ مُتخيَّلٍ لهنديٍّ عاقلٍ.

تأثيرُ البرودة في الماء هو أمرٌ تَدريجيٌّ، ولا يَتطابقُ معَ درجات البُرودة، بل عندَما تَغدو البُرودةُ في نقطة الانجماد، يتحوَّلُ الماءُ في آنٍ من الحالة السّائلة إلى حالة مُتجمِّدة كاملة. لذلك من المُمكن أنْ تُسمِّيَ هذه الحادثةَ أمرًا خارقًا للعادة، ولكي تَبدو قابلةً للتَّصديق لدى أشخاص يَعيشون في مناخٍ حارٍّ تَحتاج إلى شهادة قويّة ومُتقَنة، لكنَّها لمّا تصلْ بعدُ إلى حد الإعجاز، ولا تُخالف أيضًا التَّجربةَ العاديّةَ للصَّيرورة الطَّبيعيّة في الحالات التي تكون الأوضاعُ فيها لا مُتساويةً أيضًا. القاطنونَ في سومطرة قد شاهدوا الماءَ دائمًا بهَيئته السّائلة حسب مناخ منطقتهم، ويَنبغي أن نَعدَّ تجمُّدَ أنهارهم أمرًا عجيبًا، لكنَّهم لم يُشاهدوا بحياتهم الماءَ في شتاء موسكو، ولذلك لا يَستطيعونَ أن يَكونوا واثقينَ بنحوٍ مَنطقيٍّ ممّا يَنتج عن البُرودة.

في هذا المقطع الذي أُضيف بعدَ حين حاولَ (هيوم) أن يَقبلَ خَطَلَ عملِ المَلك الهنديِّ، بوضعه فرقًا بينَ الأمور الخارقة للعادة والمُعجزات بدون أن يُعدَّ العملُ نفسُه -يَعني الإنكارَ- بالنِّسبة للحوادث العَجيبة أمرًا خاطئًا[1].

لذلك، لو سَرَت عدمُ الوُثوقيّة بأخبار المُعجزات إلى الأخبار التّاريخيّة الأُخرى، ومنها إلى الأخبار العاديّة المُرتبطة بالماضي، فلن يُمكنَ آنذاكَ إثباتُ أيِّ خبر بهذه البَساطة، ولن يكونَ ثمّةَ فرقٌ في أن تكونَ هذه الأخبارُ أخبارًا مُهمَّةً وقيِّمةً مثل أخبار المُعجزات والأخبار المُتعلِّقة بالأنبياء عليهم السلام وبالأئمّة عليهم السلام والأفراد والوقائع التّاريخيّة المُهمّة أو بأدنى مستوًى للأخبار السّابقة، ومن بينها الأخبارُ المُرتبطةُ بولادة الأفراد العاديِّينَ أو مَوتهم أو الحوادث اليَوميّة. في هذه الحالة حتى الأخبارُ المُرتبطةُ بهويّة الأفراد، ومن بينها السيِّد (هيوم) بنفسه، ستُواجهُ حالةً من الإرباكِ والشكِّ الحقيقيِّ.

---

١ - مقتبس من محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، ص ٢٣٢.

على هذا الأساس لو سُئل السيِّدُ (هيوم) مَن والدُكَ ووالدتُكَ؟ كيفَ له أن يُقدِّمَ سيِّدًا وسيدةً يُعرِّفُهما بكونهما والدَه ووالدتَه، باعتبارهما والدَيه الرَّئيسَين؟ لو كان من المُقرَّر ألا نثقَ بأخبار الأسلاف، فكيفَ للسيِّد (هيوم) أن يُثبتَ هويّتَه ونَسلَه لوالدَيه؟ يَعني لا يُمكن للسيِّد (هيوم) استنادًا إلى ذلك أن يُثبتَ نسبَه. لأنَّه أولًا لا يَذكر السيِّدُ (هيوم) زمنَ ولادته ومعرفتَه لوالدَيه حين الولادة، ثانيًا نحن لَسنا مُلزَمينَ بأن نقبلَ خبرَ السيِّد (هيوم) والآخرينَ، المُستندَ إلى تقديم السيِّد والسيِّدة المَذكورَين بكونهما والدَيه الحَقيقيَّين، لأنَّنا لم نكنْ في ذلك الزَّمن. ولم نُجرِّبْ ولادةَ (هيوم). حتى تحليل D.N.A لا يُعطي نتيجةً في هذا المجال، لأنَّه من المُمكن أن يكونَ ثمّةَ أفرادٌ يُريدونَ أن يُخرِّبوا التَّحليلَ منذُ بدايته وحتى صدور النَّتيجة ليُظهروهُ بشكل غير واقعيٍّ.

بالطَّبع، يمُكنُ أن يكونَ ثمّةَ إجاباتٌ مُتعدِّدةٌ ومُفصَّلةٌ عن الإشكالات والأدلّة التي ساقَها (هيوم)، لكنْ بما أنَّ هذا المقالَ مبنيٌّ على الإيجاز فسيُكتفى بهذا المقدار. فضلاً عن ذلك لعلَّ بعضَ الإجابات يَرتبط بحقولٍ أُخرى من العلوم، ولأنَّه خارجَ حدودِ الموضوعِ وعنوانِ المَقالة فنغضُّ الطَّرفَ عنه.

في نهاية البحث، من الأهمِّية البالغة الالتفاتُ إلى عدّة نقاط

إنَّ القبولَ بأخبار المُعجزات، ونقضَ نظرية (هيوم)، ليس بمَعنى التَّصديق بسائر أخبار المُعجزات، بدون الانتباه إلى مصدرها وشُروطها. وعلى هذا الأساس يَنبغي أن يُدقَّقَ في أخبار المُعجزات من حيثُ المصدرُ ومن حيثُ المُحتوى والتَّصديق بها، بعد امتلاك المَعايير اللّازمة.

من المُتيقَّن أنَّه ثمّةَ شكٌّ وتَردُّدٌ في بعض موارد أخبار المُعجزات، وهي غيرُ قابلة للتَّصديق لأسباب مُختلفة، ولا يَنبغي القَبولُ بها، لكنَّ ذلك لا يَعني قبولَ نظريّة (هيوم)، لأنَّه يَعدُّ أخبارَ المُعجزات لا اعتبارَ لها، ونتيجةً لذلك فإنَّ سائرَ المُعجزات تُصبحُ لا اعتبارَ لها.

يَنبغي القَبولُ بأنَّه يُشاهَدُ في نقلِ أخبار المُعجزات رفعَ نسبة الإحصاءات، وإظهارَ كثرتها كنوعٍ من المَبالغة. وقد أدَّى هذا الأمرُ لنقلِ بعضٍ من المُعجزات، التي لم تُذكرْ في بعض المصادر الأولى، في مصادر القرون اللّاحقة، واستتبعَ هذا العاملُ كثرةَ إحصاءات المُعجزات. وقد تحقَّقَ هذا الأمرُ بالنِّسبة لبعضِ الأئمّة عليهم السلام وبعضِ الأنبياء عليهم السلام.

وكنَموذجٍ يمُكنُ الإشارةُ إلى الإحصاءات الخاصّة بمُعجزات الإمام الهادي ﷺ، إذ كانَت الرِّواياتُ والأخبارُ الخاصّةُ بمُعجزاته في المَصادر الأولى أقلَّ بكثيرٍ من مصادر المَراحل اللاّحقة، وزادَ عددُها بمُرور الزَّمان، استنادًا إلى ذلك، في حين نقلَ (الكلينيُّ)[1] تسعَ حالات، و(المُفيدُ)[2] سبعَ حالاتٍ من مُعجزات [كرامات] الإمام الهادي ﷺ، لكنَّ عددَها في الهداية الكُبرى[3] عشْر حالات، وفي دلائل الإمامة[4] ثلاثَ عشرةَ حالةً، وفي الثّاقب في المناقب[5] ٣٥ حالةً، وفي المَناقب[6] ٣٦ حالةً، وفي الخرائج والجرائح[7] ٣٣ حالةً، وفي إثبات الهُداة[8] ٩٤ حالةً، وفي مدينة المَعاجز[9] ٩٨ حالةً، وفي بحار الأنوار[10] ٧٧ حالةً.

يَعني بنظرةٍ عابرةٍ نُدركُ بأنَّ أخبارَ المُعجزات قد طوَت مسارًا تصاعُديًّا عبرَ الزَّمان، ولا سيَّما في المصادر الأخيرة. بالطَّبع هذا المسارُ التَّصاعديُّ يَنطبقُ أيضًا على سائر الأئمّة ﷺ وبعض الأنبياء ﷺ أيضًا، ومع ذلك فإنَّ هذا المسارَ لا يَنبغي أن يُؤدِّيَ إلى عدِّ جميع المُعجزات أمرًا لا اعتبارَ له، بل يَنبغي دراسةُ الأخبار وقياسُها، ووضعُ ما هو مَردودٌ منها جانبًا، لكنَّ الحالات المَقبولةَ لا يَنبغي أن تُعَدَّ أمرًا مُردَّدًا لا اعتبارَ له، معَ الإذعان بهذا المسار التَّصاعديِّ الذي أُشير إليه، أو المشاكل الأخرى التي من المُمكن أن تكونَ مَقبولةً، لكنَّ نظرة السيِّد (هيوم) إلى أخبار المُعجزات، وإنكارُه الكلِّيَّ للمُعجزات، ولا سيَّما استدلالُه، لا يُمكنُ أن يكونَ مَقبولاً بأيِّ وجهٍ.

---

١ - الكليني: الكافي، ج١، ص.ص. ٤٩٧-٥٠٢.
٢ - المفيد: الإرشاد، ج٢، ص.ص. ٣٠١-٣٠٨.
٣ - حسين بن حمدان الخصيبي: الهداية الكبرى: ص.ص.٣١١-٣٢٤.
٤ - الطبري: دلائل الإمامة، ص.ص. ٤١٢-٤٢١.
٥ - الطوسي: الثاقب في المناقب، ص.ص. ٥٢٧-٥٥٨.
٦ - بن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص.ص. ٤٠٦-٤١٢ و٤١٣-٤٢٠.
٧ - الراوندي: الخرائج والجرائح، ج١، ص.ص. ٣٩٢-٤١٩ و٦٧٢-٦٩١.
٨ - الحر العاملي: إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، ج٤، ص.ص. ٤١٦-٤٤٩.
٩ - السيد هاشم البحراني: مدينة المعاجز، ج٧، ص.ص. ٤١٩-٥٣٨.
١٠ - المجلسي: بحار الأنوار، ج٥٠، ص.ص. ١٢٤-١٨٨ و١٨٩-٢١٤.

خاتمة

يَنتج من مجموع هذا البحث أنَّ (هيوم)، واستنادًا إلى نزعته التَّجريبيّة، ولا سيَّما النَّزعة التَّجريبيّة الحَديثة، يَرى أنَّ الاستدلالَ بأخبار المُعجزات أمرٌ غيرُ مَقبول ومَطعونٌ فيه. إنَّ عدمَ وجود شواهدَ كافية على وقوع المُعجزات، وتعارُضَ المُعجزات في الأديان المُتنوِّعة، وحدوثَ المُعجزات بينَ النّاس البدائيِّينَ والجاهلينَ، والميلَ الكبيرَ لدى الإنسان في طبيعته للأمور العَجيبة والغَريبة، هي من جُملة أدلّة (هيوم) الأهمِّ، لإثبات عدم صحّة أخبار المُعجزات. لكنَّ هذه الأدلّةَ واجهَت منذُ زمنٍ (هيوم) مُخالفاتٍ، وقد وُجِّهَ لها الكثيرُ من النَّقد، وبعضُهم نُقض بصراحة هذه الأدلّة.

ومن العُلماء الغربيِّينَ، أمثال (هنري تيسن - Henry Theson) و(جون هيك -John Hick) و(هاسبرز - Hasbers) وجدناهُم اعتمَدوا على أدلّة، ومن بينها الذّاكرةُ والخاطرةُ وشهادةُ الشُّهود العيان، ونقلُ الأقوال التّاريخية والآثار الحسِّية المُتبقِّية من نوعِ التَّحقيقات التي عُمل بها في علم الإجرامَ، وانتشرَت بعدَ ذلك.

والقوانينُ العلميّةُ، وتواترُ الأخبار، وعدمُ صحّة بعض ادِّعاءات (هيوم -Hume)، والخلطُ بينَ المنهج الفلسفيِّ والعلوم التَّجريبيّة، وتَبيينُ الظَّواهر بالعلم والتَّجربة الرّاهنة، والتَّعارضُ في استدلالات (هيوم)، هي جميعًا تُشكِّلُ أهمَّ الإشكالات الواردة على أدلّته.

لذلكَ على الرَّغم أنَّه من المُمكن في بعض الحالات أن تكونَ أخبارُ المُعجزات أكبرَ من الحقيقية، أو قد تلاعبَت الأيدي بها لأسباب مثل وجود مَحدوديات في نقل الواقع أو أدلّة نفسيّة أو أخطاء فرديّة، لكنْ أنْ تُقاسَ هذه الأخبارُ بمعيار التَّجربة، وتُصبحَ مَوردَ طعنٍ وشكٍّ، وتَخرُجَ عن حيِّز الانتفاع، فهذا أمرٌ أيضًا لا يُمكنُ قَبولُه بأيِّ وجه. ولا سَيما لو سرَت هذه النَّظرةُ الخاطئةُ بشكلٍ طبيعيٍّ إلى سائر الأخبار التّاريخيّة أيضًا، ففي تلك الحالة لن نتمكَّنَ من إثبات أيِّ خبر أو قضيّة تاريخيّة، وبهذه النَّظرة لن يكونَ لأهمِّ التأثيرات التّاريخيّة، وهي التأسِّي والعِبرةُ والاعتبارُ، أيُّ استخدام تَطبيقيٍّ عمليٍّ لها.

المصادر والمراجع

باللغة الفارسية

■ أبو حاتم الرازي: أعلام النبوة، تح. صلاح الصاوي؛ وغلام رضا أعواني، مؤسسة البحوث في الحكمة والفلسفة الإيرانية، طهران، لاط، ٢٠٠٢م.

■ أحمد بن حسين هاروني حسني زيدي: إثبات نبوة النبي (ص)، تح. عبد الكريم أحمد جدبان، مكتب التراث الإسلامي، اليمن، لاط، ١٤٢٤هـ.

■ جون هاسبرز: فلسفه دين (نقدى بر براهين اثبات وجود خدا به روش تحليل فلسفي) [فلسفة الدين (نقد على براهين إثبات وجود الله بالمنهج التحليلي الفلسفي)]، تر. بالفارسية لجنة الترجمة والتنقيح في مركز الدراسات والتحقيقات الإسلامية في مكتب الإعلام الإسلامي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، لاط، ١٩٩٩م.

■ جون هيك: فلسفة الدين، تر. بالفارسية بهرام راد، دار الهدى للنشر الدولي، طهران، لا ط، ١٩٩٣م.

■ حسين بن حمدان الخصيبي: الهداية الكبرى، دار بلاغ للنشر، بيروت، لا ط، ١٤١٩هـ.

■ سعيد بن هبة الله القطب الراوندي: الخرائج والجرائح، مؤسسة الإمام الهادي، قم، لاط، ١٤٠٩هـ.

■ السيد هاشم البحراني: مدينة المعاجز، تح. لجنة التحقيق برئاسة عباد الله طهراني ميانجي، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، لا ط، ١٤١٥هـ.

■ عبد الله المامقاني: مقباس الهداية، تح. محمد رضا المامقاني، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، لاط، ١٤١١هـ.

■ العهد القديم (التوراة)، استنادًا إلى كتاب أورشليم المقدس، تر. بالفارسية بيروز سيار،

هرمس، طهران، لا ط، ٢٠١٤م.

■ فردريك كابلستون: تاريخ فلسفه [تاريخ الفلسفة]، المجلد الخامس: الفلاسفة الإنجليز (من هوبز وحتى هيوم)، تر. بالفارسية أمير جلال الدين أعلم، شركة النشر العلمي الثقافي ودار سروش للنشر، طهران، لاط، ١٩٩٦م.

■ محمد أمين أحمدي: تناقض نما يا غيب نمون، نگرشى نو به معجزه [نظرة حديثة للمعجزة]، مركز الدراسات والأبحاث الإسلامية، مكتب الإعلام الإسلامي في حوزة قم، قم، لا ط، ١٩٩٩م.

■ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، بمسعى من محمد باقر بهبودي وآخرين، مؤسسة الوفاء ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

■ محمد بن جرير الطبري: دلائل الإمامة، مؤسسة البعثة، قم، لاط، ١٤١٣هـ.

■ محمد بن حسن الحر العاملي: إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لا ط، ١٤١٨هـ.

■ محمد بن عليّ بن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، تح. لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، لا ط، ١٣٧٦هـ.

■ محمد بن محمد المفيد: الإرشاد، تح. مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، لاط، ١٤١٣هـ.

■ محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، تح. علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، لا ط، ١٩٨٤م.

■ محمد حسين الطباطبائي: إعجاز القرآن، مركز رجاء للطباعة والنشر الثقافي، طهران، لاط، ١٩٨٣م.

■ محمد حسين الطباطبائي: مبادئ الفلسفة والمدرسة الواقعية، منشورات صدرا، طهران، لاط، ١٩٨٥م.

■ محمد علي ابن حمزة الطوسي: الثاقب في المناقب، تح. نبيل رضا علوان، مؤسسة

أنصاريان، قم، ط٢، ١٤١٢هـ.

■ محمد فتح علي خاني: فلسفة الدين لدى ديفيد هيوم، مركز بحوث الحوزة والجامعة، قم، لاط، ٢٠١١م.

■ هنري ثيسن: الهيات مسيح [شريعة المسيح]، تر. بالفارسية طاطاوس ميكائيليان، دار الحياة الأبدية للنشر، طهران، لا ط، ٢٠٠٩م.

■ ويل وآريل ديورانت: "الدين والفلسفة"، تاريخ تمدن، عصر ولتر [تاريخ الحضارة، عصر فولتير]، تر. بالفارسية سهيل آذري، شركة دار النشر العلمي الثقافي، طهران، ط١٠، ٢٠٠٥م.

باللغات الأجنبية

■ David Hume: An Enquiry Concerning Human Understanding and other writings, edited by Stephen buchle- Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2007.

■ John Erman: Hume`s Abject Failure, Oxford: Oxford University Pres, 2000.

■ John Locke: An Essay Concerning Human Understanding, A. s. Pringle-Pattisson (ed), Hertfordshire: Wordsworth Editions Limited, 1998.